موقع العقيدة والحياة

www.al-aqidah.com

شرح رسالة

الواسطة بين الحق والخلق

لشيخ الإسلام: ابن تيمية

شرحها فضيلة الشيخ

د. أحمد بن عبد الرحمن القاضي

عضو هيئة التدريس بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة

بكلية أصول الدين جامعة القسم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فهذا هو المجلس الرابع من سلسلة هذه المجالس المتتالية ، التي نستعرض فيها بعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، ينعقد هذا المجلس عصر يوم الجمعة ، الموافق للثالث عشر من شهر جمادى الثانية ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم علما نافعا وعملا صالحا .

ولئن كانت الرسائل الأولى ، التي تناولناها فيما مضى ، تتعلق بنوع من التوحيد ، هو التوحيد العلمي ، فإن هذه الرسالة ، تتعلق بالتوحيد العملي ، وهو توحيد العبادة .

وينبغي أن يعلم المؤمن ، أن توحيد الله تعالى نوعان :

- توحيد في المعرفة والإثبات .

- وتوحيد في القصد والطلب .

فأما توحيد المعرفة والإثبات : فإنه يتناول توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات ، أي أنه يتعلق بالجانب العلمي ، ولهذا يقال : التوحيد العلمي ، ويقال أيضا : التوحيد الخبري ، وربما قيل : النظري ، ويعبر عن هذا النوع من التوحيد سورة الإخلاص {قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد} .

وأما النوع الثاني فهو : التوحيد العملي ، ويقال : توحيد الإرادة والطلب ، ويقال : توحيد العبادة ، ويقال أيضا : توحيد الألوهية .

وكلها معان تدور حول مسمى واحد ، ويعبر عن هذا النوع سورة الكافرون {قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين} .

فجميع أنبياء الله تعالى ، بعثوا بتقرير هذين النوعين معا ، ولكن موطن الخلاف بينهم وبين أقوامهم ، كان في توحيد العبادة ، فإنه ما بعث الله نبيا ، إلا بادَأَ قومه بهذه الجملة {يا قوم اعبد الله ما لكم من إله غيره} وقال سبحانه {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} .

وقد تكلم العلماء جريا واتباعا على طريقة الأنبياء ؛ إذ هم وراثهم الحقيقيون ، في تقرير هذين النوعين ، وبيانهما للناس ، كما بينهما الكتاب والسنة .

وهذه الرسالة التي بين أيدينا ، الموسومة بـ "الواسطة بين الخلق والحق " رسالة مختصرة ، ولكنها غزيرة الفوائد ، فيها من العلوم النافعة ، والفوائد الجمة الشيء الكثير .

ومن أعظم ميزاتها : تأصيل التوحيد ، فقد ضخ الشيخ رحمه الله فيها من دلائل توحيد العبادة ، آيات عظيمة ، وأحاديث شريفة ، تبين حقيقة التوحيد الذي بعث به الأنبياء والمرسلون ، وتتضمن الرد على مخالفيه .

وهذا المعنى لم يزل أهل العلم والإيمان يكررونه ، فكما أن السلف الأول من الصحابة والتابعين دعوا إليه ، فقد دعا إليه الأئمة الكبار ، كأحمد ومن بعده ، ودعا إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، في العديد من كتبه ، ودعا إليه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب ، في كتابه "كشف الشبهات" فإن ما في كشف الشبهات ، مستمد من مثل هذه الرسالة .

فهذه هي بضاعة أهل العلم ، أن يذكروا الناس بين الفينة والفينة ، بحق الله العظـــيم ، وهو : العبادة ، {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} .

كما أن من ميزات هذه الرسالة : بيان حقيقة الأسباب ؛ إذ يخلط الناس كثيرا في هذا الباب ، ولا يميزون بين الأسباب المعتبرة والأسباب الملغاة ؛ لهذا جاءت هذه الرسالة جوابا على سؤال ألقي على شيخ الإسلام ابن تيمية ، فأجاب عنه بما يأتي .

متن :

سئل شيخ الإسلام قدس الله روحه ، عن رجلين تناظرا ، فقال أحدهما : لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله ، فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك.

شرح :

الحمد لله رب العالمين ، لم يزل الناس يتناظرون ويختلفون ، وهذا أمر طبيعي في بـــني آدم ، أن يقع بينهم اختلاف ، ولكن ينبغي لمن جرى منه هذه المناظرة ، أن يتأدب بأدب الخلاف ، وهو : أن يكون ناشدا للحق ، مخلصا في طلبه ، فإن من طلب الحق بإخلاص ، هداه الله إليه ، فلا بأس أن يتناقش الناس فيما بينهم ، وأن يتناظروا ، لكن لـــيكن الهـــم الباعث لكل واحد منهم هو الوصول إلى الحق ، لا المغالبة ولا المهاترة ، كما يقـــع مـــن بعض السفهاء .

وصورة السؤال كما رأيتم ، أن الرجلين تناظرا في مسألة ، فقال أحدهما : لا بد لنـــا من واسطة بيننا وبين الله ؛ إذ إننا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك ، هكـــذا قـــرر أحـــد المتناظرين ، ولما كانت هذه جملة عامة محتملة ، أجاب عنها الشيخ رحمه الله بجواب فيـــه تفصيل .

متن :

فأجاب : الحمد الله رب العالمين ، إن أراد بذلك أنه لا بد من واسطة تبلغنا أمر الله فهذا حق ، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعده لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى عباده .

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ويرفع درجاتهم ، ويكرمهم في الدنيا والآخرة .

وأما المخالفون للرسل فإنهم ملعونون وهم على ربهم ضالون محجوبون ، قال الله تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) .

وقال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرآ وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة)

وقال الله تعالى عن أهل النار : (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ) .

وقال الله تعالى : (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) .

وقال تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) . ومثل هذا في القرآن كثير .

وهذا ما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهم الرسل الذين بلغوا عن الله أمره وخبره ، قال تعالى : (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) . ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل .

شرح :

استهل الشيخ رحمه الله إجابته ، بأن قسم الأمر إلى احتمالين :

أحدهما : أن ذلك السائل إن أراد بالوسائط التي لا بد أن تكون بين الله وبين خلقه ، من يبلغ عن الله أمره ، فهذا حق ؛ إذ لا سبيل لنا لمعرفة مراد الله تعالى ، وعبادته ، ولا إثبات ما ينبغي له من صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، إلا عن طريق الرسل ؛ إذ إن أحدنا لا يتمكن من مخاطبة الله تعالى مباشرة والأخذ عنه مباشرة ، فإن الله سبحانه وتعالى

قد حصر ذلك برسله ، فقال {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحيَ بإذنه ما يشاء} فلا سبيل للناس إلى العلم بمراد الله تعالى ، ولا إلى العلم بما يحبه ويرضاه ، وما يسخطه ويأباه ، إلا عن طريق الرسل .

ولهذا فإن الناس نصفان :

- أتباع رسل .

- ومخالفون للرسل .

وهكذا ينبغي أن ننظر إلى التاريخ معشر الإخوة والأخوات ومن بلغ ، فإن المؤمن ينظر إلى تاريخ البشرية على أنه تاريخ الأنبياء ، بخلاف ما يقسمه أهل الجاهلية القديمة والجاهلية المعاصرة ، حينما يقسمون التاريخ إلى أقسام ترجع إلى أمور دنيوية ، أو إلى أمور الممالك والسلاطين ، والإمبراطوريات المتعاقبة ، تجد أن أهل الإيمان إذا تعرضوا للتاريخ ، فإنهم يبتدئون بذكر خلق آدم عليه السلام ، ثم يثنّون بما جرى بعد ذلك من إهباطه إلى الأرض ، ثم يذكرون أنبياء الله تباعا ، وقصة كل نبي على حدة ، فأصحاب الحس الإيمان ينظرون إلى تاريخ البشرية ، على أنه تاريخ الأنبياء مع أقوامهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق واستعمرهم في الأرض ليعبدوه ، وتعاهدهم ببعثة الرسل ، وجعل الحجة الرسالية ، هي الحجة التي يمكن أن يحتج بها البشر ، فقال سبحانه {رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل} ، وكان الإيمان بأنبياء الله من أصول الإيمان ، فلذلك كان الناس صنفين : إما موافقين للرسل ، وإما مخالفين للرسل ، فقط ، فمن وافق الرسل فقد رضي أن يتخذهم واسطة بينه وبين الله عز وجل ، يقبل عنهم خبرهم ، ويمتثل أمرهم ، وينتهي عن نهيهم ، وعلى هذا أصحاب الملل المختلفة ، من اليهود والنصارى والمسلمين ، فإنهم جميعا يقرون بنبوات الأنبياء ، ونحن نعتقد أن الله سبحانه وتعالى ، لم يدع البشر دون إقامة الحجة عليهم ، فقد قال سبحانه {وما كنا

معذبين حتى نبعث رسولا} وقال سبحانه {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} وقال {وإن من أمة إلا خلا فيها نذير} فنعتقد أن من المُحْكمات ، أن الله تعالى ما كان ليدع أهل الأرض دون رسالات ، إلا أن الناس بعد ذلك تعرضوا لدين الله عز وجل ، ولمضمون الرسالات بالتحريف ، فتحولت إلى ديانات وثنية ، فهذه الديانات التي يعتنقها ملايين البشر ، وربما أكثر من ذلك ، في شرق الأرض ، في بلاد الصين ، وأواسط آسيا ، وجنوب آسيا ، من الهندوسية والبوذية والكونفوشوسية ، وغير ذلك من الديانات الواسعة الانتشار ، ربما كانت بقايا نبوات سابقة ، جرى فيها التحريف حتى أخرجها عن حد التوحيد إلى حد الشرك ، فلم يبق لها إمما جاء به أنبياء الله تعالى شيء ، وكذلكم اليهودية والنصرانية ، فإن أصل اليهودية ، هو ما أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام ، ثم طرأ عليها تحريف الأحبار والرهبان ، وكذلك أيضا النصرانية ، هي ما أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام ، لكن طرأ عليه تحريف الرهبان والقسس ، فآلتا إلى هاتين الصورتين المشوهتين .

إذن قد بين الشيخ رحمه الله ، أن اعتقاد واسطة بين الخلق والحق ، أي الله عز وجل ، تبلغ عن الله عز وجل مراده وخبره ، أن هذا اعتقاد حق ، أطبقت عليه وأجمعت عليه الملل المختلفة .

متن :

ونحو ذلك هي متضمنة لأصول الدين كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر .

وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل وكيف أهلكهم ونصر رسله والذين آمنوا ، قال الله تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) .

وقال تعالى : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)

فهذه الوسائط تطاع وتتبع ويقتدى بها كما قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّه)

وقال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)

وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)

وقال تعالى : (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وقال تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) .

شرح :

نعم ، هذه هي النتيجة الطبيعية لاعتقادنا بأن هؤلاء الرسل ، هم الوسائط المبلغون عن الله عز وجل ، فإن ثمرة ذلك أن يصدقوا ويُتبعوا ، لا يكفي أن نعتقدهم أنبياء ثم لا نصدق خبرهم ، ثم لا نعمل بأمرهم ، هذا تناقض في القضية ، بل الواجب على من آمن برسل الله تعالى ، أن يصدق ما صح من أخبارهم ، وأن يعمل بما لم يُنسخ من أحكامهم ، هذا هو الواجب ، وقد ذكر الشيخ رحمه الله ، أدلة تَبْرُقُ كالشمس في هذا المعنى ، ونضيف إليها قول الله تعالى ، فيما يتعلق بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يمكن أن نسميه "الإعلان العالمي" ، قول الله تعالى {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي

يؤمن بالله وكلماته واتبعوه} أرأيتم ؟ لم يكتف فقط بالأمر بالإيمان المجرد به ، بل لا بد من اتباع ، {واتبعوه لعلكم تهتدون} إذن لا بد من الاتباع .

وأنوه في هذا المقام ، بما نسمع بين الفينة والفينة ، حينما يتحدث بعض الناس عن بعض المسائل التي فيها ذكر محاسن الإسلام ، أو ذكر الإعجاز الحاصل في القرآن ، فيما يسمى بـ "الإعجاز العلمي" فيوردون القصص والروايات ، ويقولون : إن فلانا عجب كيف أن هذا الدين وصل إلى هذا الأمر قبل ألف وأربعمائة سنة ، ثم يقف الحديث عند العجب وعند الاستحسان وعند الانبهار ، هذا لا يكفي ، لا يتم إيمان امرئ حتى يتبع النبي ؛ إذ الدين مبناه على اعتقاد القلب ، ومبناه على القول والعمل معا ، لا انفكاك بينهما ، فلهذا كان الإيمان قولا وعملا ، فأما أن يطلق فلان أو علان عبارة ، يمتدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، أو يمتدح دين الإسلام ، فهذا بحد ذاته ليس إيمانا ، قد كان أبو طالب يثني على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول فيما يقول :

ولقد علمت بأن دين محمد ،، من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو مخافة سبة ،، لرأيتني سمحا بذاك مبينا

ومع ذلك لم ينقذه ذلك من النار ، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، بأن تحت قدميه ، جمرتين من نار ، يغلي منهما دماغه] فلننتبه لهذا ، ولنعرف أن الإيمان لا يتم إلا بالجمع بين الاعتقاد والاتباع معا ، ثم قال :

متن :

وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجعون إليه فيه ، فهذا من

أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار .

شرح :

هذا هو الاحتمال الثاني في كلمة هذا المناظر لصاحبه ، فإن الاحتمال الثاني أن يريد بالواسطة بعض المخلوقين ، يسألهم جلب المنافع ودفع المضار ، من دون الله عز وجل ، يتوجه إليهم في الضراء والسراء ، ويرى أنهم وسطاء بينهم وبين الله في تحقيق مطلوبه ، حتى وإن قال : إن النافع والضار على وجه الحقيقة هو الله ، لكن هؤلاء هم وسائط بيننا وبين الملك الأكبر ، فنجعلهم بيننا وبينه ليبلغوا حاجاتنا ورغباتنا ، هذا هو الشرك الذي بعث رسل الله تعالى بنقضه ورده ، وتكذيب قائله ، بل وحربه ، فهذا الاحتمال الآخر مردود على صاحبه ، وهو عامة ما وقع فيه المشركون الأوائل ، ومشركو الأزمان المتأخرة ، وسوف يبين الشيخ رحمه الله كيف كان ذلك شركا ، بنص كتاب الله .

متن :

لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها قال الله تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

وقال تعالى : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ .

وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

شرح :

لما كانت أكبر شبهة يتشبث بها مشركو الأزمنة الماضية ، ومشركو هذه الأزمنة هي دعوى الشفاعة ، أي أنهم يقولون : الشفاعة ثابتة ، أتنكرون الشفاعة ؟ أليست الشفاعة حقا ؟ ثم يفيضون بذكر هذه الجمل المتلاحقة ، جاء الرد عليهم مباشرة ، فإن أول شيء يقرر في هذا المقام أن يقال : إن الشفاعة لله جميعا ، كما قال تعالى {قل لله الشفاعة جميعا} فالشفاعة التي أثبتها تعالى في كتابه هي ما جمعت شرطين :

- إذن الله تعالى للشافع أن يشفع .
- ورضاه عن المشفوع له .

وبالتالي فإن الشفاعة عند الله تعالى ، ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا ، بمعنى أن الشفاعة أمر يمدحه الله تعالى للشافع ، فيأذن له بالشفاعة بسبب رضاه عن المشفوع له ، وليس كما هو الحال عند ملوك الدنيا ، يتقدم الكبير أو الوزير إلى ذي سلطان ، دون إذن مسبق منه ، ودون رضا من ذلك السلطان عن المشفوع له ، ويُدلي عليه بشفاعته ، فربما أجابه رغبة أو رهبة ، الأمر في حق الله ليس من هذا الباب ، كلا ، بل لله الشفاعة جميعا ، أي الله تعالى هو الذي يملك الشفاعة ، وليس سواه ، ولهذا قال في الآية الأولى التي تلاها المؤلف قال {ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون} وقال في الثانية {ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع } ثم ذكر آية استقصت جميع متعلقات المشركين ، حتى لم تبق لهم ما يتشبثون به أبدا ، إلا أن يوحدوا الله ، تأملوا ، قال تعالى {قل ادعوا الذين

زعمتم من دونه} أي هؤلاء الذين تدعونهم شركاء وشفعاء {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض} أي ليس لهم مسوغ لأن يكونوا شفعاء من تلقاء أنفسهم ؛ لأنهم لا يملكون الاستقلال ، فربما قال قائل : إنهم لا يملكون استقلالا ، لكنهم يملكون مشاركة ، فعقب بالقول {وما لهم فيهما من شرك} فربما قال قائل : نعم لا يملكون استقلالا ولا مشاركة ، ولكنهم بمنزلة الأعوان والخدم والحشم ، الذين لا يستغني عنهم السلطان ، فهو بحاجتهم ، فقال {وما له منهم من ظهير} فألغى جميع هذه المتعلقات الثلاث ، وبقي أمر رابع يمكن أن يتعلقوا به ، وهو : الشفاعة ، بأن يقول قائل : نعم ، هم لا يملكون استقلالا ولا مشاركة ولا معاونة ، ولكن لهم جاه عند الله يدلون به ، فقال معقبا {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} والعجب أنه قال إثرها آية عظيمة ، قال {حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير} أي : أعظم من يُتصور قدرة وقوة في هذا الكون هم ملائكة الرحمن ، ومع ذلك فإن هؤلاء الملائكة العظام ، حالهم مع ربهم عز وجل ، أن الله إذا تكلم بالكلام أخذهم رُعدة ورجفة ، وغشي عليهم وخروا وغابوا عن الوعي ، {حتى إذا فزع عن قلوبهم} أي زال عنهم الفزع ، {قالوا ماذا قال ربكم} قالوا لجبريل ، وقد نزل بكلام الرب ؛ إذ إنه أول من يفيق ،فيكلمه الله بما شاء ، فلا يمر على ملأ من الملائكة ، إلا قالوا يا جبريل ماذا قال ربنا ؟ فيقول : قال الحق ، فتقول الملائكة : قال الحق ، فلهذا عبر بصيغة الجمع ، فقال {قالوا الحق وهو العلي الكبير ، فكأن الله تعالى يقول لهؤلاء المشركين : إذا كان هذا حالَ أعظم وأقوى وأكبر من ترجونهم للشفاعة مع ربهم من الخوف والفزع والتعظيم ، فكيف بمن دونهم ، فهذا كله يدل على خلوص الأمر لله سبحانه وتعالى .

متن :

وقال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر ، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم يسألهم جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يسألهم غفران الذنب ، وهداية القلوب ، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات فهو كافر بإجماع المسلمين .

شرح :

في هذه القطعة يا رعاكم الله ، جواب عن شبهة يروجها مشركو هذا الزمان ، وهو قولهم : إن المشركين الأوائل كانوا يتخذون الأصنام شفعاء ووسطاء عند الله عز وجل ، أما نحن فإنما ندعو أناسا صالحين ، ندعو السيد فلانا ، والولي فلانا ، الذي كان معروفا بصلاحه وتقاه ، بخلاف المشركين الأوائل ، فإنهم كانوا يدعون اللات والعزى ومناة ، وغير ذلك من الأصنام ، فالجواب عنهم أن يقال : إن الله تعالى قد أنكر من اتخذ الصالحين من الأنبياء والملائكة والصالحين شفعاء ، وأثبت ذلك في كتابه ، فقال في آية {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا} ، أي هؤلاء المدعوون لا يملكون كشف الضر ، أي رفعه ، ولا تحويلا ، أي تحويله إلى غيركم ، وتسليمكم منه ، ثم بين أن أولئك المدعوين ، قوم على درجة من العبادة والصلاح ، فقال {أولئك الذين يدعون} أي يدعوهم المشركون ، {يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه} أي هؤلاء الذين تشركون بهم ،

وتجعلونهم وسائط بينكم وبين الله ، هم في أنفسهم لا يفعلون ما تفعلون ، وإنما يتوجهون إلى الله بكليتهم ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، فإن كنتم صادقين معظمين لهم ، فسيروا على خطاهم ، واتبعوهم ، وافعلوا ما فعلوا من صدق اللجوء إلى الله تعالى ، ورجائه وخوفه .

وكذلك أبطل اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا من دون الله ، فتبين بذلك أن هذه الدعوى دعوى باطلة ، وأن القرآن الكريم قد سبق مشركي الزمان ، إلى إبطالها ، وأنه لا فرق بين أن يدعى صنم أو شجر أو حجر أو غير ذلك ، وبين أن يدعى ولي صالح ، كل ذلك مناف للتوحيد .

متن :

لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) .

وقال تعالى : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً) .

وقال تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً) .

وقال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) .

وقال الله تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

وقال تعالى : (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ) .

وقال الله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

ومثل هذا في القرآن كثير .

شرح :

إي والله ، مثل هذا في القرآن كثير ، هذه الآيات ، آيات التوحيد في القرآن العظيم ، تملأ القلب توحيدا لله رب العالمين ، وتخرج منه كل تعلق بغير الله عز وجل ، وتجعل العبد المؤمن يعلم بأنه لا يأتي بالحسنات إلا الله ، ولا يدفع السيئات إلا الله ، وأن كل من سوى الله فهو مفتقر إليه ، هذه هي حقيقة التوحيد التي بعث بها أنبياء الله ، تأمل كيف أن الملائكة الكرام ، الذين وصفهم ربهم عز وجل بقوله {بل عباد مكرمون} ، قال عنهم سبحانه {ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين} ،

{ومن يقل منهم إني إله} لم يقل "رب" ههنا ، إله : أي مألوه ، أي من انتدب أو تصدر منهم ، وحاشاهم ، وقال : إني إله يدعى ويطلب منه الفرج ، وترفع إليه الحاجات ، فذلك نجزيه جهنم ، وحاشاهم ، لكن الله تعالى أراد أن يبين تبرئتهم من هذا الأمر ، وأراد أن يبين أن الشرك مرفوض من كائن من كان لكائن من كان ، مهما كان حاله ، ولو كان ملكا .

وكذلك ذكر الله عز وجل من أثبت مع الله الولد ، فإن إثبات الولد لله عز وجل ، يقتضي نوعا من الشرك ؛ إذ الولد من جنس والده ، الولد ينبغي أن يكون من جنس والده ، كما أن الاستيلاد إنما يكون لحاجة ، وقد وقع في هذه الفرية : اليهود والنصارى والمشركون ، فاليهود قالت {عزير ابن الله} والنصارى قالت {المسيح ابن الله} ومشركوا العرب قالوا : الملائكة بنات الله ، وزعموا أن الله تعالى اتخذ زوجة من الجن فأنجبت له الملائكة ، ورد الله تعالى عليهم جميعا .

وتأملوا يا أيها الكرام ويا أيتها الكريمات هذا التصوير القرآني ، الذي يبين لنا أنه يجب أن نعظم ما عظم الله ، فيقول الله تعالى {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السماوات يتفطرن منه} وصدق الله ، {وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا} ومع ذلك تجد النصارى يقولون : المسيح ابن الله ، ويعبرون عن يسوع المخلص بأنه ابن الله ، وتطرق هذه الكلمة أسماع الكثيرة ولا تهتز منه خصلة تعظيما وتمجيدا لله رب العالمين ، سبحانه وبحمده .

وكذلك ساق آيات ، تنفي الشفاعة عن كل من لم يأذن الله به ، ولعل آية النجم هي الجامعة لشرطي الشفاعة ، قال {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} فقد أفرد الله شرط الإذن في بعض الآيات ، كقوله {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} وأفرد شرط الرضا في قوله {ولا يشفعون إلا

لمن ارتضى} ، وجمع بين الشرطين في آية النجم ، فقال {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، فلا بد من إذن الله للشافع ، ورضاه عن المشفوع له .

وههنا إشكال وهو : أنه ربما قال قائل : إن كان الله تعالى ، قد أن للشافع أن يشفع ، ورضي عن المشفوع له ، فما قيمة الشفاعة ، ما دام المشفوع له مرضيا عنه ، فما فائدة شفاعة الشافع ؟ والجواب عن هذا أن يقال : إن في ذلك تكريما للشافع ، وإظهارا لفضله ، فإن الله سبحانه وتعالى إذا قبل شفاعته ، كان له مقام ومنزلة ، وإظهار لكرامته وقدره عند الله ، وهذا أمر مُدرك ، حتى عند الناس ، أن من قبل شفاعة فلان ، كان ذلك دليلا على تكرمته له ، فهذه هي فائدة الشفاعة ، وإلا فإنه لا يمكن أن يشفع شافع في مشرك ، {فما تنفعهم شفاعة الشافعين} لكن الله عز وجل ، يقبل شفاعة الأنبياء والمرسلين والملائكة والشهداء والصالحين ، بل وحتى الفَرَط ، يشفع لوالديه ، والشهيد ، يشفع لسبعين من أهل بيته ، كل ذلك لإظهار فضله ، فهذا هو الجواب عن هذا الإشكال .

متن :

العلماء ورثة الأنبياء :

ومن سوى الأنبياء من مشايخ العلم والدين ، فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم فقد أصاب في ذلك .

وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة لا يجتمعون على ضلالة وإن تنازعوا في شئ ردوه إلى الله والرسول ، اذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق ، بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (العلماء ورثة الأنبياء فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر) .

شرح :

هذا تفريع على الوساطة الحقة ، وهو : أن علماء الدين وساطتهم في التبليغ مقبولة وصحيحة ، إذا كانوا كما وصف الشيخ رحمه الله ، مشايخ علم ودين ، لا مشايخ سوء ، فإذا كان مشايخ علم ودين ، من حملة الشريعة ، وحفاظ الوحيين ، فإنهم وسائط مقبولة ، وصحيحة ، في التبليغ عن رسل الله ؛ إذ لا سبيل لنا إلى العلم بما قالته الأنبياء ، إلا عن طريق العلماء ؛ إذ العلماء ورثة الأنبياء ، ونحن نعلم أن السند منقطع بيننا وبين أنبياء الله المتقدمين ، ولكن السند بيننا وبين رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، سند متصل صحيح ، فلذلك كان شيوخ العلم والدين ، هو وراث الأنبياء حقا، فمحمد صلى الله عليه وسلم ، قد ورث الأنبياء قبله ، قال الله تعالى بعد أن ذكر التوراة ثم ثنى بالإنجيل ، ثلّث فقال {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه } أي حاكما وقاضيا ، فكانت هذه الرسالة المحمدية ، مستوعبة لكل ما في الرسالات السابقة من حق ، مضيقة إليها ، ناسخة لبعض ما فيها ، ثم جاء علماء الملة ، من الصحابة والتابعين ، فحملوا العلم ، كما جاء في الأثر "يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين} ولم يزل الله عز وجل ، يجعل في ثنايا التاريخ ، وأجيال الأمة ، من يؤهلهم ليكونوا أوعية للعلم ، من الحفاظ العظام ، الذي زخِر بهم تاريخ الإسلام ، فبقيت الملة بحمد الله محفوظة ؛ تصديقا لقول الله عز وجل {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} واعلموا يا رعاكم الله ، أن الذكر يشمل النوعين : يشمل الوحي المترل من السماء ، وهو كلام رب العالمين ، والوحي الذي تكلم به من لا ينطق عن الهوى ، نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقد قال الله {وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى .

علمه شديد القوى} فما تفوه به النبي صلى الله عليه وسلم ، من كلام ، فهو من الـــذكر المحفوظ أيضا ، فقد قيض الله تعالى له من العلماء ، والمحدثين والفقهاء ، ما بينوا صحيحه من سقيمه ، وما بينوا به أوجه دلالته ، فبقي الدين محفوظا ، فلهذا قال صلى الله عليـــه وسلم [العلماء ورثة الأنبياء ، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر} .

وأنتم يا طلب العلم على هذا الطريق سائرون ، فكل من قبس من نور النبوة ، وأخذ من علوم الكتاب والسنة ، كان له كفل من هذا الميراث النبوي ، ولهذا يـــروى أن أبـــا هريرة رضي الله عنه ، خرج إلى الناس وهم في السوق ، في البيع والشراء ، فقال : أنـــتم هنا وميراث محمد صلى الله عليه وسلم يُقسم ؟ فانجفل الناس إليه ، وقالوا : أين ؟ ظنـــوا بقية غنيمة ، أو مَغَل ، فقال : في المسجد ؟ فانكفأ الناس في المسجد فدخلوا ، فإذا حلق منثورة يمنة ويسرة ، حلق القرآن والتحديث ، فقال : هذا ميراث محمد ، وصدق رضـــي الله عنه ، ميراث النبوة هو العلم النافع ، {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق} ، فلئن رأيت الناس يقتتلون على لعاعة من الدنيا ، فاعلم أنهم في خسار ، وأنك حين تـــثني ركبتيك في طلب العلم ، ابتغاء آية محكمة ، أو سنة ثابتة ، فهذه هي الغنيمة حقـــا ، في الدينا والآخرة .

لكن ينبغي في هذا المقام ، وقد ذكر الشيخ هذا الفرع ، ومشايخ العلم والـــدين ، أن نحذر من الوساطة الباطلة ، وهي : أن يتوسط بيننا وبين رسل الله مشايخ سوء ، من أهل الضلال ، والانحراف ، ومن أهل التعصب الذميم ، فإن هؤلاء ليسوا وسائط صـــحيحة ، فالمقلد ليس عالما باتفاق ، إذ العلم الحق هو ما كان ناشئا عن اجتهاد ، والمعصب أيـــضا ليس عالما ، إذ إن تعصبه يعميه عن الحق ، ومن ابتغى بعلمه الدنيا ، واتخذه سلما ، فإنـــه ليس بعالم ، ولا يصلح أن يكون واسطة حقيقيا ، بل هو في الحقيقة ضد ذلك ، فقد قال

الله تعالى {من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهمن فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا الناس وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون} فهؤلاء والعياذ بالله ، لا يصح أن يطلق عليهم وسائط بيننا وبين الله .

متن :

ومن أثبتهم وسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب الذين بين الملك ورعيته بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه ، فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله ، كما أن الوسائط عند الملوك يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم ، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك ، أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج ، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

شرح :

هذه الصورة التي رسمها الشيخ ، والحكم الذي حكم به ، ألا تلاحظون أن الشيخ رحمه الله ، جازم في أحكامه ، صارم فيها ، وهذا ناتج عن القوة العلمية ، والوضوح ، فإن الإنسان إذا كان على بينة من ربه ، تكلم ونطق بلسان مبين ، لا يتلجلج ولا يغمغم ، بل يقول قولا فصلا ، فهو يتكلم عن هؤلاء ، ويشير إلى شبهة ، لا زال مشركو الزمان ، يرددونها كما رددها المشركون الأولون ، وهو : أنهم يقولون : إن مقام الملك مقام رفيع عظيم ، وأنه لا يسوغ أن نتوجه إليه مباشرة ، لا بد لنا من وسائط نتلطف بهم للوصول إليه ، ليكون ذلك أدعى لقبول سؤالنا ، قالها الأوائل ، في قول الله تعالى {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلا الله زلفى} وقالها المتأخرون حينما دافعوا عن شركهم وسدانتهم لقبور الأولياء

والمزعومين ، وقالوا : هؤلاء لهم مترلة عند الله ، ونحن نتخذهم يبلغون عن الله عز وجل مطالبنا ؛ لأننا ملطخون بالآثام والخطايا ، لا نستطيع أن نلج على الملك من بابه ، بل نتخذ من هؤلاء الحجاب والوسطاء من يبلغون عن الله ، فندعوهم ليدعوا الله لنا ، ونسألهم ليسألوا الله لنا ، هذه دعوى شركية قديمة ، فمن وقع في هذا ، واتخذ من الوسائط ، من النبيين أو العلماء أو الصالحين ، على هذا الوصف ، دعاهم من دون الله ، فهو مشرك كافر بالله العظيم ، بلا تردد .

وبهذا أيها الإخوة ، يتبين لكم خطأ من زل من بعض المعاصرين ، في أنه يسوغ وربما لم يسوّغ ، لكن لم يحكم بشركه ، أن يأتي إلى صاحب القبر ، ويقول له : يا صاحب القبر ، أو : يا فلان اشفع لي عند ربك ، فإن هذا من الخطأ العظيم ، بل هو من الشرك ، وقد أفتى الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله ، في نحو هذه المسألة ، وقطع بأن فاعل ذلك مشرك ، لا يحل أن يأتي إلى صاحب قبر ، ولو لم يدعه هو بنفسه ، لكن طلب منه أن يدعو الله له ، أو قال له : اشفع لي عند الله ، فهذا دعاء للأموات ، لا يحل ، من أراد أن يدعو ، فليدع الله مباشرة ، وبعضهم يقول : إن هذا من بدع الدعاء ، لكنها بدعة مكفرة ، وليست بدعة دون ذلك ، فلا يحل إلا دعاء الرب سبحانه ، ما الذي حمل هذا الإنسان أن يدَع المحكم ، وهو : دعاء الله عز وجل ، مباشرة ، وسؤاله مباشرة ، ليأتي لمن لا يسمع كلامه ، ولا يرى مكانه ، ويقول له : اشفع لي عند ربك ، سل الله لي كذا وكذا ، لولا أن في قلبه نوع تعلق بهذا المقبور ، وهذه حقيقة في الشرك ، فيجب الحذر من التسويغات الباطلة .

متن :

وهؤلاء مشبهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً .

وفي القرآن الكريم من الرد على هؤلاء ما لم تتسع له هذه الفتوى ، فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس يكونون على أحد وجوه ثلاثة .

الوجه الأول : إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه ، ومن قال إن الله لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بذلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر ، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو السميع البصير ، يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين .

شرح :

هذا شروع من الشيخ رحمه الله ، في بيان الاحتمالات الممكنة للوسائط بين الناس وبين الملوك ، وهي وإن صحت في حق ملوك الدنيا ، لكنها ممتنعة منتفية في حق الله ، فأحد هذه الاحتمالات أن يكون هؤلاء الوسائط بين الملك وبين الناس ، كون الملك لا يعلم بأحوال الناس ؛ لأنه لا يباشرها ، ولا يترل إليهم في أسواقهم وبيوتهم وميادينهم ، فيكون هؤلاء الوسائط بمترلة المخبرين المبلغين ، لئن ساغ ذلك في حق الناس ، مع ملوكهم في الدنيا ، فإن هذا ممتنع في حق الباري ، لم ؟ لأن الله تعالى لا تخفى عليه خافية ، فلا يمكن أن يتخذ ذلك مدخلا لتوسيط الوسائط الباطلة ، فالله تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ولا تغلطه المسائل على اختلاف اللغات وتفنن الحاجات واللهجات ، فهذا إذن احتمال ساقط .

متن :

الوجه الثاني :

أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه إلا بأعوان يعينونه ، فلابد له من أنصار وأعوان لذله وعجزه ، والله سبحانه ليس له ظهير ولا ولي من الذل ، قال الله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) .

وقال تعالى : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) .

وكل ما في الوجود من الأسباب فهو خالقه وربه ومليكه فهو الغني عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم في الحقيقة شركاؤهم في الملك ، والله تعالى ليس له شريك في الملك ، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير .

شرح :

الاحتمال الثاني الذي يجعل الناس يتخذون وسائط لدى ملوك الدنيا ، هو أن يكون ذلك الملك ، وإن كان عالما بأحوال الناس ، أن يكون عاجزا عن التدبير والتصرف ، فيتخذ الوزراء ، ويتخذ الخدم والحشم وغير ذلك ، لإعانته على تدبير أمر ملكه ، فحينئذ يلجأ الناس إلى هؤلاء الوسائط ، لإدلائهم على ذلك الملك ، وهذا الحتمال في حق الرب سبحانه ، منتف غاية الانتفاء ، فإن الله سبحانه وتعالى ، له القدرة المطلقة ، وهو سبحانه مبرأ من العجز {ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم} فكان ذلك في الحقيقة ، احتمالا منتفيا ، بل مستحيلا في حق الله عز وجل ، وهؤلاء الوزراء والخدم والأعوان ، الذين يعاونون ملوك الدنيا ، كما عبر الشيخ ، هم في الحقيقة شركاء له في الملك ، وإن لم يكن الأمر كذلك ، لكنه يقتطعون جزءا من ملكه ، وينتفعون به ، أما الله تعالى ، فله الملك

المطلق ، لا شريك له في ملكه ، فمن أثبت وسائط تدلي على الله عز وجـــل ، لكونـــه بحاجتهم ، فإن ذلك طعن في الربوبية ، وانتقاص للمُلك ، وقد كبر الرب سبحانه نفسه ، فقال سبحانه {وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا و لم يكن له شريك في الملك و لم يكن له ولي من الذل } "من" هنا السببية ، أي : و لم يكن له ولي بسبب الذل ، {وكبر تكبيرا} ، الله أكبر ، المقام الثالث :

متن :

أن يكون الملك ليس مريداً لنفع رعيته والإحسان إليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج ، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظمه أو من يدل بحيث يكـــون يرجـــوه ويخافه تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته ، إما لما حصل في قلبه ن كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه ، والله تعالى هو رب كل شئ ومليكه ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو إذا أجـــرى نفـــع العبـــاد بعضهم على بعض : فجعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك ، فهو الذي خلق ذلك كله ، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الـــداعي الـــشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة .

لا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده ، أو يعلمه ما لم يكـــن يعلم ، أو من يرجوه الرب ويخافه .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يقولن أحدكم اللهم أغفر لي أن شئت ، اللهم أرحمني إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة فإنه لا مكره له) .

والشفعاء الذين يشفعون عنده : لا يشفعون إلا بإذنه ، كمال قال : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

وقال الله تعالى : (وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) .

وقال الله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

فبين أن كل من دُعي من دونه : ليس له ملك ولا شرك في الملك ولا هو ظهير ، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له .

شرح :

إذن هذا هو الاحتمال الثالث ، المتوقع بالنسبة لملوك الدنيا ، أن يكون أحدهم ليس مريدا لنفع العباد ، ولا يخطر بباله هذا الأمر ، فيحتاج إلى مذكر من الخارج ، لكي يحركه ويذكره بهذا الأمر ، فإذا تسامع الناس بأن هذا يدلي على الملك ، ويذكره وينقل إليه ، ويعطفه على الناس ، فإنهم يلجأون إلى أولئك الوسائط ، هذا الأمر ممتنع في حق الله عز وجل ، فإن الله سبحانه وتعالى ، أرحم بخلقه من الأم بولدها ، كما جاء في حديث سبي هوازن ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى امرأة تمشي في السبي ، ملهوفة ، فأكبت ، فأخذت وليدا لها ، وألزقته إلى صدرها ، وألقمته ثديها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم [أتُرون أن هذه ملقية ولدها في النار ؟] قالوا : كيف يا رسول الله وقد صنعت ما صنعت ، قال [لله أرحم بخلقه من هذه بولدها] .

فربنا سبحانه وبحمده ، ليس بحاجة إلى أحد أن يذكره بحاجة الناس ، كما أنه سبحانه وبحمده ، لا يقبل شفاعة هؤلاء الشافعين ، رغبة في استمالتهم ، أو رهبة من خصومتهم ؛ إذ إن ملوك الدنيا ، ربما قبلوا شفاعة الشافعين ، إما بسبب جهلهم بحال الناس ، فيأتي إليهم من يأتي من الناصحين ، ويقول له : افعل كذا ، والتفت إلى كذا ، فيشكر له ذلك أن نبهه إليه ، ويفعل ما اقترحه ، وربما يأتي إليه أحدهم بشيء لا يرضاه ، لكنه يريد أن يتخذ يدا عند ذلك الذي طلب منه الشفاعة ، ففعل ذلك ليستميله ، أو أنه قبل ذلك منه ، خوفا من أن يستعديَه ، فهذا كله منتف في حق الله عز وجل .

متن :

وهذا بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكاً لهم في الملك ، وقد يكون مظاهراً لهم معاوناً لهم على ملكهم .

وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم ، والملك يقبل شفاعتهم تارة بحاجته إليهم ، وتارة لخوف منهم ، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم وإنعامهم عليه ، حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته ، لذلك فإنه محتاج إلى الزوجة والى الولد ، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك ، ويقبل شفاعة مملوكة ، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه ، أو أن يسعى في ضرره ، وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس ، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة ، والله تعالى لا يرجو أحداً ، ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد ، بل هو الغني ، قال الله تعالى : ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ .

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعدونه من الشفاعة .

قال الله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى : (فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) .

قال الله تعالى: (وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

قال الله تعلى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْـرَبُ وَيَرْجُـونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً) .

فأخبر أن ما يُدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله ، وأنهم يرجون رحمتـه ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه ، فهو سبحانه قد نفى ما للملائكة والأنبيـاء إلا مـن الشفاعة بإذنه ، والشفاعة هي الدعاء .

شرح :

إذن تبين بذلك ما الوسيلة التي أثبتها الله تعالى ، وما الوسيلة التي أبطلها الله تعـالى ، الوسيلة التي أثبتها الله تعالى الإيمان به ، ومحبته ، ورجاؤه وخوفه ، كما قال {أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه} فأعظم وسيلة

يتوسل بها إلى الله عز وجل ، هي الإيمان به ، ومحبته ، وخوفه ، ورجاؤه ، هـذه هـي الوسيلة ، ولفظ الوسيلة مثل : الوصيلة ، يُتَوسل به : أي يتوصل به ، فهذا هو الطريـق الموصل إلى الله عز وجل ، أن تعقد الخناصر على هذه الأمور ، وهو أن تؤمن به سبحانه ، وأن ترجوه ، وأن تخافه ، وأن تتقرب إليه بأنواع القرب ، لا تشرك معه أحدا .

أما الوسيلة الباطلة الملغاه ، فهي أن تتوسل إليه بغيره ، فتدعو ذلك الغير ، وترجـوه وتخافه ، وتحبه ، محبة شركية ، فهذه هي التي أنكرها الله تعالى على مـشركي العـرب ، فقال {قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عـنكم ولا تحـويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة} .

متن :

ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع والله قد أمر بذلك .

لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك ، فلا يشفع شفاعة نُهي عنها ، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة .

قال تعالى : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِـي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّـا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) .

وقال تعالى في حق المنافقين : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَـنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

وقد ثبت في الصحيح أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين وأخبر أنه لا يغفر لهم كما في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

وقوله تعالى : (وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) .

وقد قال تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) – في الدعاء – ، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله مثل : أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للمشركين ونحو ذلك ، أو يسأله ما فيه معصية الله كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان .

فالشفيع هو الذي أذن الله له في الشفاعة : وشفاعته في الدعاء الذي ليس فيه عدوان ، ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه ، فإنهم معصومون أن يقروا على ذلك ، كما قال نوح عليه السلام : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) .

قال الله تعالى : (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

شرح

هذه المسألة أرجو الانتباه لها ، وهي : أن الدعاء نافع ، والدعاء نوع من الشفاعة ، فدعاء المؤمنين بعضهم لبعض ، هو شفاعة ، نحن إذا اصطففنا في الصلاة نصلي على الجنازة ، وندعو ، نحن شافعون ، نشفع لهذا الميت عند ربنا عز وجل أن يغفر له ، هذا

نوع شفاعة ؛ لأن كلمة "الشفع" ضد الوتر ، فالشفع في لغة العرب هو الزوج ، وإنما سمي الشَّفع شفعا ؛ لأن الشافع انضم إلى المشفوع له ، فبدلا من أن يكون فردا ، صار زوجا ، هذا هو أصل هذا التعبير بالشفاعة ، فدعاء المؤمنين بعضهم لبعض ، هذا نافع ، ووسيلة صحيحة ، تضاف إلى أعظم الوسائل ، وهي الإيمان بالله تعالى ، ورجاؤه وخوفه ، والتوكل عليه ، وغير ذلك ، لكن لا بد أن يكون هذا الدعاء ، الذي هو نوع شفاعة ، موافقا للحق ، فلا يشفع الإنسان فيما نهى الله تعالى و لم يأذن به ، فلو أن إنسانا أراد أن يشفع لكافر ، قيل له : هذه شفاعة باطلة ، لو قال : قد توفي قريبه على الشرط ، على يهودية ، على نصرانية ، ويريد أن يدعوَ له ، قيل له {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه} لأن إبراهيم قال : لأستغفرن لك ، ما لم أنه عنك ، {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم} .

أرأيتم ؟ كيف أن التوحيد فيصل بين أقوى الروابط والوشائج ، فمع أنها علاقة أبوة وبنوة ، لكن لما كان الشرك مانعا ، حال بينه وبين أن يمكن من الدعاء له .

وكذا نبينا صلى الله عليه وسلم ، استأذن ربه أن يزور قبر أمه بالأبواء ، وأن يدعو لها ، فأذن له الله أن يزور قبرها ، و لم يأذن له أن يدعو لها ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم الأبواء ، وقام على قبر أمه ، ومعه أربعمائة دارع من أصحابه ، أي عليهم الدروع ، فقام على قبرها ، فبكى وأبكى من حوله ، و لم يدع لها ، امتثالا لأمر الله عز وجل ؛ إذ الشرك أمر عظيم ، فإذن لا يمكن أن تكون الشفاعة لمشرك ؛ لأن هذا مناف للشفاعة ، كما أنه أيضا لا يجوز في الدعاء أن يصاحبه عدوان ؛ لأن الله تعالى يقول {ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين} أي المعتدين في الدعاء ، ومن العدوان في الدعاء ، أن يسأل

العبد ما لم يكن الرب ليفعله ، مثل أن يسأله منازل الأنبياء ، مثل لو قال قائل : اللهم إني أسألك منازل النبيين ، قيل : هذا عدوان في الدعاء ؛ لأن منازل النبيين لا تنبغي إلا لـــه ، لكن يسعك أن تقول : اللهم إني أسألك مرافقة النبيين ؛ لأن الله تعالى قال {فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} .

ولما قال كعب بن مالك للنبي صلى الله عليه وسلم : أسألك مرافقتك في الجنـــة ، لم ينكر عليه ذلك ، بل قال : [أعني على نفسك بكثرة السجود] .

وإذا دعا أحد من أنبياء الله تعالى بدعاء ، فيه غلط ، فإنه لا يقره عليه ، ألم تـــروا أن نوحا عليه السلام قال لربه { إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك بـــه علـــم إني أعظك أن تكون من الجاهلين} ، وبناء عليه ؛ فينبغي أن نتبين أيها الإخوة الكرام ، ويـــا أيتها الأخوات ومن بلغ ، قيمة الدعاء ، وأنه من أجلى صور العبادة ، الدعاء أجلى صور العبادة ، ألم يقل الله عز وجل {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا} .

وقال نبيه صلى الله عليه وسلم [ليس شيء أكرم على الله من الدعاء] ، بل قد سمـــاه الله تعالى عبادة في كتابه ، فقال سبحانه {وقال ربكم ادعوني أستجب لكـــم إن الـــذين يستكبرون عن عبادتي } ولم يقل : دعائي ، جعله بديلا ، وكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم [الدعاء هو العبادة] .

فعلى الإنسان أن يضبط هذه العبادة ، فلا يخرج الدعاء مخرجا غير صحيح ، بل يدعو الله تعالى بما أذن الله تعالى به ، وبما شرعه .

متن :

ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع والله قد أمر بذلك .

لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك ، فلا يشفع شفاعة نُهي عنها ، كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة .

قال تعالى : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) .

وقال تعالى في حق المنافقين : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

وقد ثبت في الصحيح أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين وأخبر أنه لا يغفر لهم كما في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

وقوله تعالى : (وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) .

وقد قال تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) – في الدعاء – ، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله مثل : أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للمشركين ونحو ذلك ، أو يسأله ما فيه معصية الله كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان .

فالشفيع هو الذي أذن الله له في الشفاعة : وشفاعته في الدعاء الذي ليس فيه عدوان ، ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه ، فإنهم معصومون أن يقروا

على ذلك ، كما قال نوح عليه السلام : (إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) .

قال الله تعالى : (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وكل داع شافع دعا الله سبحانه وتعالى وشفع ، فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته ، وهو الذي يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة ، فهو الذي خلق السبب والمسبب ، والدعاء من جملة الأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى .

مقدار الأسباب :

وإذا كان كذلك فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع (2) بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى ، والله يقدر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما شاء .

شرح :

هذا كلام جيد متين رصين في مسألة الأسباب ، وهو : أن الله سبحانه وتعالى ، ركب هذه الدنيا على السببية ، فجعل الله تعالى لكل شيء سببا ، وجعل الأسباب نوعين :

- أسبابا شرعية .
- وأسبابا حسية .

فهذه الأسباب موجودة محسوسة ، مدركة معهودة في حياة الناس ، فلهذا قال الشيخ رحمه الله ثلاث جمل بديعة ، قال "فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد" ، أي : من نظر إلى الأسباب ، و لم يلتفت إلى مسبب الأسباب ، فقط تعلق بالسبب ، و لم يلتفت إلى مقدر الأسباب ، فهذا شرك في التوحيد ، لماذا ؟ لأنه أشرك في توحيد الربوبية ؛ حيث جعل التدبير معلقا بالسبب لا بالمسبب ، وهو الله عز وجل .

قال "ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل" إي والله ، الذين يكرون الأسباب ، ولا يفعلون الأسباب ، في عقولهم نقص ، كأن يقعد إنسان ، ويقول : لا داعي للضرب في الأرض ، ولا لطلب الرزق ، إن كان الله تعالى يريد أن يرزقك ساق الرزق إليك ، ولو كنت في جوف بيتك ، يقال : هذا نقص في العقل ، كما لو قال قائل : إن كان الله قد قسم لك ذرية ، فسترزق بالذرية ، ولو لم تتزوج ، نعد هذا جنونا ؛ لأنه لم يفعل الأسباب التي ركب الله تعالى عليها نظام الخليقة ، هذا معنى قوله "ومحو الأسباب أن تكون أسباب نقص في العقل" ، ثم قال : والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع" أي من أعرض عن الأسباب ، و لم يمحها ، أي لم يصل إلى درجة محوها أن تكون أسبابا ، لا ، لكن قال : هي أسباب ، لكن أنا أعرض عن التشبث بها ، والتذرع بها ، قال عنه : إنه قدح في الشرع ؛ لماذا ؟ لأن الشرع أمر العباد بفعل الأسباب ، {وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله} ، وفي الحديث [اعقلها وتوكل] ، وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، في سيرته ، يتخذ الأسباب في كل ما يحتاج إليه ، حتى إنه لما هاجر من مكة إلى المدينة ، أوى إلى غار ثور ثلاث ليالي متعاقبات ، واختار غارا في جنوب مكة ، لا في شمالها على الطريق ، وكمَن ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب ، واتخذ دليلا هو عبد الله بن أريقط ، خريتا ، يعرف له الطريق ، وجعل عامر بن فهيرة يأتي بالغنم ، يُعفّي على آثار أقدامه ، وأسماء بنت أبي بكر تأتي له بالطعام ، وعبد الرحمن بن أبي بكر يأتي له بأخبار قريش ، وكان يكمن نهارا ويمشي ليلا ، مع أن الله تعالى قادر على

أن ينقله من مكة إلى المدينة في لمح البصر ، كما نقله من مكـــة إلى بيـــت المقـــدس إلى السماوات العلا وأعاده ورده ، في ليلة واحدة ، لكن الأسباب لا بد منها ، نبينا صلى الله عليه وسلم ، دخل مكة وقد ظاهر بين درعين ، وجعل على رأسه المغفر ، فلهـــذا قـــال الشيخ رحمه الله "إن الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع" .

والذين يمحون الأسباب ، والذين يعرضون عن الأسباب غالبا يكونون من الصوفية ، الذين يجرون وراء الخرافات والحكايات والمنامات ، ولا يعولون على الآيات المحكمات ، بل يعتمدون على هذا النسك الاعجمي الدخيل ، الذي لم يشَم رائحة الإســـلام ، والله يقدر الأسباب ، بمعنى أن العبد يفعل السبب ، والله تعالى يقضي ويحكم ما يريد .

متن :

والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى والأدنى للأعلـــى ، فطلـــب الـــشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي صلى الله عليـــه وســـلم في الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء ، بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو سيد الشفعاء ، وله شفاعات يختص بها ، ومع هذا فقد ثبت في الصحيحين عـــن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ، فمن ســـأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة) .

(وقد قال لعمر لما أراد أن يعتمر وودعه ، يا أخي لا تنسني من دعائك) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد طلب من أمته أن تدعو له ، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم ، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التي يثابون عليها مع أنه صلى الله عليه وسلم له مثل أجورهم في كل ما يعلمونه ، فإنه قد صح عنه أنه قال : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) .

وهو داعي الأمة إلى كل هدى فله مثل أجورهم في كل ما اتبعوه فيه .

شرح :

أرجو الانتباه ! الدعاء مشروع من الأعلى للأدنى ، ومن الأدنى للأعلى ، أي مشروع أن يدعو الأعلى رتبة ودينا ، يدعو الله تعالى لمن دونه ، ومشروع أن يدعو الأدنى لمن هو أعلى منه من مشايخه ومن يتقدمه ، كذلك يدعو الله تعالى له ، الدعاء مشروع من الطرفين ؛ لأنه نوع شفاعة ، والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض .

وقد كان المسلمون يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء ، ويستسقون به ، ما معنى يستسقون به ؟ أي يطلبون منه أن يدعو الله أن يغيثهم ، فكان يخرج بهم صلى الله عليه وسلم ، إلى المصلى ، ويدعو الله ، [اللهم أغثنا] ، (وأبيض يستسقى الغمام بوجهه) ، فكان الصحابة رضوان الله عليهم ، يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يدعو الله لهم ، وفعلوا ذلك مع العباس بن عبد المطلب ، وهذا من المواضع المشكلة ، التي يشبه بها مشركو هذا الزمان ، ظنوا أن طلب المسلمين من العباس بن عبد المطلب ، وتقديمهم إياه ، أنه نوع من الشفاعة بذاته ، وهذا باطل ؛ إذ إن عمر رضي الله عنه ، لما أجدبوا ، في عام الرمادة ، قدم العباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نستسقي بنبيك

فتسقيَنا ، وإنا نستسقي بعم نبيك ، قم يا عباس فادع" ، ظن مشركو هـذا الزمـان أن المسلمين استسقوا بذات العباس ، وإنما استسقوا بدعائه ، لا بذاته ؛ إذ إنه صلى بهـم ، صلى لمن ؟ لله رب العالمين ، دعا من ؟ دعا الله رب العالمين ، لم يتوسلوا بذات العباس ، لو كان التوسل – وانتبهوا لهذه الحجة – لو كان التوسل بذات العباس ، لتوسلوا بـذات النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ، ذاته لم تُعدم ، وإن كان قـد مات ، لكن ذاته موجودة ، لقالوا : اللهم إنا نتوسل بذات نبيك ، هكذا ، لكنهم قدموا العباس لقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكونه من أهل بيته أن يدعو لهم ، هذا هو حقيقة استسقاء المسلمين بالعباس بن عبد المطلب ، ليس دعاء له ولا دعاء به ، أي دعاءً بذاته ، وإنما توسل بدعائه لله رب العالمين .

بل إن الشيخ رحمه الله ، أشار إلى مسألة دقيقة ، أرجو أن ترعوها انتباهكم ، وهي : أن نبينا صلى الله عليه وسلم ، طلب من أمته الدعاء له ، لهذا قال في أول هذا المقطع : أنه يكون من الأعلى للأدنى ومن الأدنى للأعلى ، واستدل بدليلين :

أحدهما : حديث في صحيح مسلم ، وهو دعاء الأذان ، وفيه [وسلوا الله لي الوسيلة] ، قوله [وسلوا الله لي] هذا طلب منهم أن يدعوا الله له ، [فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو] .

وأما المثال الثاني الذي ذكره شيخ الإسلام ، واحتمله في مواضع من كتبه ، وإن كان قد ضعفه بعض أهل العلم ، وقد نبه شيخ الإسلام على كلام فيه في مواضع من كتبـه ، قوله لعمر رضي الله عنه [يا أخي لا تنسنا من دعائك] حينما هم أن يعتمر .

وكذلك أيضا حثُ أمته على الصلاة والسلام عليه ، لكن الشيخ نبه على مسألة دقيقة ، وهي : أن طلب النبي صلى الله عليه وسلم ، من أمته أن يدعوا له ، ليس سؤالا مجردا ، وإنما هو نوع من التشريع ، حينما يطلب النبي صلى الله عليه وسلم ، من أمته ، أن يسألوا

الله له الوسيلة ، أو أن يصلوا عليه ، فذلك لان هذا جزء من الشريعة ، وجزء من الأمـــر الذي يثابون عليه ، ليس هو سؤالا مجردا ، كما لو يسأل أحد أحدا ، ويقول : لو سمحت يا فلان ، أرجو أنك تدعو لي في آخر الليل ، أو نحو ذلك ، لا ؛ لأن كل خير هُديت إليه الأمة ، فإنما كان عن طريقه ، حتى سؤالُنا لنبينا صلى الله عليه وسلم الوسيلة ، هو مـــن الهدى الذي دلنا عليه ، فله مثل أجورنا ، وحتى صلاتنا عليه صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت دعاء له بالذكر في الملأ الأعلى ، فإن هذا أمر نثاب عليه ، ويثاب عليه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه دل أمته عليه ، فقد قال في الحديث [من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضـــلالة ... الخ] .

إذن أمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا يحفظ ولا يقاس عليه ؛ إذ لا نبي غـــيره في هذا الأمر ، فيكون أمره هذا من باب التعليم ، الذي تثاب عليه أمته ، ويكون أيضا لـــه مثل ثوابهم عليه ، وليس سؤالا مجردا .

متن :

وكذلك إذا صلوا عليه فإن الله يصلي على أحدهم عشراً ، وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له ، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه ، وصـــار مـــا حصل له به من النفع نعمة من الله عليه .

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : (ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيـــب بدعوة إلا وكّلَ الله به ملكاً كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكّلُ به آمين ولـــك مثل ذلك) .

وفي حديث آخر : (أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب) .

فالدعاء للغير ينتفع به الداعي والمدعو له ، وإن كان الداعي دون المدعو له ، فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعو له ، فمن قال لغيره أدعُ لي وقصد انتفاعهما جميعاً بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى ، فهو نبه المسئول وأشار عليه بما ينفعهما .

والمسئول فعل ما ينفعهما بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى ، فيُثاب المأمور على فعله ، والآمر أيضاً يثاب مثل ثوابه لكونه دعا إليه ، لا سيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد كما قال الله تعالى : (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) .

فأمره بالاستغفار ثم قال : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) .

فذكر سبحانه استغفارهم واستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر به الرسول حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولم يأمر الله مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً شيئاً لم يأمر الله المخلوق به ، بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب ، ففعله هو عبادة لله وطاعة وقربة إلى الله ، وصلاح لفاعله وحسنة فيه ، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله إليه وإنعامه عليه ، بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

شرح :

آمل أن تتأملوا هذه المسالة ! .

ينبغي للإنسان ألا يسأل غير الله عز وجل ؛ لأن هذا كمال التوحيد ، يجوز أن يسأل الإنسان غير منفعة من المنافع ؛ لأنه كما قيل :

الناس للناس من بدو وحاضرة ،،، بعض لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

ولكن كمال التوحيد ألا يكون لأحد عليك منة ، أن يكون المن لله وحده ، ولا يكون لأحد من الناس عليك إدلال ، بأي شيء من الأشياء ، فإن قدر بحكم الطبيعة البشرية ، أن يحسن الناس بعضهم إلى بعض ، فكافئه ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم [من صنع إليكم معروفا فكافئوه ، فن لم تقدروا أن تكافئوه ، حتى تظنوا أنكم قد كافأتموه] ، وهذا من جهة من باب البر والوفاء والإحسان ، ومقابلة الجميل بمثله ، ومن باب آخر ، من باب إخلاص التوحيد لله عز وجل ؛ بحيث يكون العبد لم يسأل إلا ربه ، وحين سأل غيره ، فقد قابله وكافأه بالمثل .

وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم نفرا من أصحابه على كذا وكذا وكذا ، وختمها بكلمة وأسر بها ، قال [وألا تسألوا الناس شيئا] يقول الراوي : فرأيت أحدهم يسقط سوطه من راحلته ، فلا يسأل أحدا أن يناوله إياه ، ينزل فيتناوله ، كل ذلك لكي يبقى الفضل والمن لله وحده عليه ، ولا يكون لأحد من الناس عليه منة ، وقد قيل في الأمثال :

(سل من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأعط من شئت تكن أميره) وهي حق .

سل من شئت تكن أسيره : لأنك تستأسر له ، إذا سألته وقلدك هذه المنة .

واستغن عمن شئت تكن نظيره :

كلانا غنيٌ عن أخيه حياتَه ،،، ونحن إذا متنا أشد تغانيا

وأعط من شئت تكن أميره : لأنه يكون لك يد عليه .

فكلما أمكنك يا عبد الله ، أن لا يكن لأحد من المخلوقين عليك فضل فافعل ، فإن قدر أن صار لأحدهم عليك فضل ، فكافئه ، وليس مقتضى ذلك أن ينقطع الناس عن الخلق ، وألا يقبل إحسانهم وهديتهم ، وخدمتهم ، لا لا ، ليس هذا هو المقصود ، فإن هذا قد يوجد في بعض النفوس من الناس وعدم التواصل ، لا ، المقصود أنك لا تبتدئهم بالسؤال ، ولهذا قال في الحديث [لا يسترقون] أي لا يطلبون الرقية ، ولا يصح لفظ [لا يرقون] ، وإن قدر أنهم أحسنوا إليك ، لا على سبيل المقايضة ، مثلا واحدة بواحدة في الآن ، لا ، تلطف في الإحسان إليهم كما أحسنوا إليك .

وهذا معنى دقيق ، يحتاج من المؤمن إلى تكيف ، حتى لا يكون لأحد عليه فضل ، إلا الله سبحانه وتعالى ، حتى أبويه الذين لا يمكن أن يبلغ مكافأتهما ، إلا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم [لا يبلغ أحد بر والده ، إلا أن يجده رقيقا فيعتقه] شرع له أن يكثر من الدعاء لهما ، والاستغفار لهما ، والصدقة عنهما ، وإكرام صديقهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما .

المهم : أنه ينبغي للمؤمن أن يزرع هذا المعنى في قلبه ، وأن يعلم أن من كمال التوحيد الاستغناء عن الخلق ، من غير ترفع ولا كبر ، ولكن من باب توحيد رب العالمين ، والاستغناء بالله تعالى عمن سواه ، فإنه إذا كان كذلك ، شعر بالكرامة ، وشعر بالرفعة ، وإذا كان الإنسان يعود نفسه دوما على المسألة والاستجداء ، هانت نفسه ، ولم يكن توحيده كما ينبغي ، إلا أن يسأل حقا له .

متن :

والإيمان قول وعمل يزيد بالطاعة والحسنات ، وكلما ازداد العبد عملاً للخير ازداد إيمانه ، هذا هو الإنعام الحقيقي المذكور في قوله تعالى : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) .

وفي قوله تعالى : (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) .

نعم الدنيا والدين :

بل نعم الدنيا بدون الدين هل من نعمة أم لا ؟

فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

والتحقيق أنها نعمة من وجه ، وإن لم يكن نعمة تامة من وجه ، وأما الإنعام بالدين الذي ينبغي طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب ، فهو الخير الذي ينبغي طلبه باتفاق المسلمين ، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة إذ عندهم أن الله هو الذي أنعم بفعل الخير ، والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدرة عليه الصالحة للضدين فقط .

شرح :

نعم هذه مسألة تتعلق بالقدر ، فإن الشيخ لما بين إنعام الله سبحانه وتعالى ، وذكر خلافا في مسألة نعم الدنيا ، هل تعد نعمة أم لا تعد نعمة ، وذكر قولين للأصحاب ، يقول "قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم ، والتحقيق أنها نعمة من وجه ، وإن لم تكن نعمة تامة من وجه" لا شك أن ما خولنا الله تعالى به ، من هذه النعم ، أن هذا إنعام من الله ، امتن الله به على عباده ، فقال : {قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة} فهي نعمة من وجه ، ولكنها ابتلاء من وجه آخر .

والنعمة في الدين ، أي أن يكون الله تعالى أنعم الله عليك بالدين ، فصرت

من أهل الدين ، عند أهل السنة والجماعة ، الأمر هكذا ، أن هذا محض فضل الله ونعمته ، أن هيأك وأعدك وأمدك ، لكي تكون مستجيبا لله ورسوله ؛ ولهذا قال الله تعالى

في سورة الحجرات {واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم} فأثبت نعمة الدين .

القدرية ، تعلمون أن القدرية ينكرون أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي قدر طاعات العباد ومعاصيَهم ، وغلاتهم يقولون : إنه أمر ونهى ، ولم يعلم من سيطيعه ومن سيعصيه ، عياذا بالله ، ومقتصدوهم ، وهم المعتزلة ، يقولون : نعم ، قد علم وكتب ذلك في اللوح المحفوظ ، لكن العبد هو الذي يشاء فعل نفسه ، دون مشيئة الله ، وهو الذي يخلق فعل نفسه ، دون خلق الله ، وبالتالي فالنعمة عندهم هي الإقدار على فعل الضدين ، أي نعمة الآلة ، عند القدرية الذي يقولون : العبد يخلق فعل نفسه ، النعمة عندهم هي الإقدار على فعل الضدين ، ما هما الضدان ؟ الخير والشر ، الطاعة والمعصية ، البر والفجور ، يقولون : النعمة المقصودة ، هي ما ركب الله تعال في العبد من القدرات البدنية والنفسية والعضلية ونحو ذلك ، لتمكنه من فعل أحد الضدين ؛ لأنهم ينكرون أن يكون الله تعالى خالق أفعال العباد ، هذا معنى هذه الجملة الأخيرة .

متن :

والمقصود هنا أن الله لم يأمر مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق ، إما واجباً أو مستحباً ، فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك ، فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك ؟

بل حرم على العبد أن يسأل العبد ماله إلا عند الضرورة ، وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب على ذلك ، وإن كان قصده حصول مطلوبة من غير قصد منه لانتفاع المأمور فهذا من نفسه أتي .

ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه إذ هـذا الـسؤال محـض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحته ، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب إليه ويأمرنا أن نحسن إلى عباده .

وإذا لم يقصد لا هذا ولا هذا فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه وهو الصلاة ، ولا قصد الإحسان إلى الخلق الذي هو الزكاة ، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال ، لكن فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه ، ألا ترى أنه قـال في حـديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب أنهم لا يسترقون .

وإن كان الاسترقاء جائزاً ، وهذا قد بسطناه في غير هذا الموضع .

شرح :

هذا مزيد بيان لما سبق تقريره ، من أن العبد لا ينبغي أن يسأل غير الله عز وجـل ، فالله تعالى ، لم يشرع لمخلوق أن يسأل مخلوقا ، وإن كان ذلك قد يجوز ، لكـن الله لم يشرع ، لا على سبيل الإيجاب ، ولا على سبيل الاستحباب لمخلوق أن يسأل مخلوقا .

فلو قال لنا قائل : أليس قد قال في الحديث [من دعا لأخيه بظهر الغيب ، وكل الله به ملكا يقول له : آمين ، ولك بمثله] فهذا دليل على أن المؤمنين يدعو بعضهم لبعض ، قلنا : نعم ، لا شك أن المؤمنين يشرع لهم أن يدعو بعضهم لبعض ، لكن الـسؤال : هـل يشرع لك أن تقول لصاحبك : ادع لي ، هذا لصاحبك الحي ، نحن نتكلم عـن ميـت مقبور ، هذا قد فرغنا منه ، لكن هل يسوغ لك أن تأتي إلى رجل صالح ، أو تـأتي إلى أخيك ، وتقول : ادع لي ؟ هذا يجوز إذا استصحبت إحدى نيتين :

- إما نية نفع المسؤول .

– أو نية نفعك ونفعه معا .

أما لو كان سؤالا مجردا ، فهو ليس بمشروع ، كيف ذلك ؟ حينما تقول لأخيك : يا أخي ؛ لا تنسني من دعائك ، وأنت في خاطرك تنوي نفعه ، وأن يوكل الله به ملكا يقول له : آمين ولك بمثل ، ساغ ذلك ؛ لأنه إحسان ، أو تستصحب نية نفعك أنت ونفع أخيك ، فتكونان من المتعاونين على البر والتقوى ، فذلك أيضا سائغ محتمل ، لكن أن تنوي بذلك نفعك المجرد ، ولا يقع في قلبك ولا يدور في خلدك نفع أخيك ، فهذا غير مشروع ، وإن كان جائزا ؛ ولهذا قال في الحديث [لا يسترقون] وجعل هؤلاء نخبة ، وفئة مميزة من الأمة ، وهم السبعون ألفا ، ومعنى ذلك أن من سواهم من الأمة يمكن يقع منهم طلب الرقية ، ويسألون غيرهم أن يرقيهم .

ويمكن – وهذا محل نظر وتأمل – أن يقال : لو أن أحدا طلب الرقية من أخيه ، بنفس النية ، بنية أن ينتفع ، وينتفع أخوه بما يحصل له من الإحسان ، لربما وسعه ذلك ، فهذا محل تأمل ، والمقصود أنك لا تمتنع من أن تقول لأخيك : ادع لي ، ولكن أقم في نفسك هذا الشعور ، وهو أنك تنوي بذلك نفع أخيك ، بأن يقول له الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثله ، فتكونان من المتعاونين على البر والتقوى .

متن :

والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عبادة الأوثان كانوا يقولون إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله (3) وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى ، حيث قال : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) .

أي فليستجيبوا لي إذا دعوتهم بالأمر والنهي ، وليؤمنوا بي أن أجيب دعاءهم لي بالمسألة والتضرع .

وقال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) .

وقال تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ) .

وقال تعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ)

وقال تعالى : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) .

وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ، ولا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه .

الخشية لله وحده :

قال تعالى : (فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً) .

وقال تعالى : (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) .

وقال تعالى : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ) .

وقال تعالى : (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

فبين أن الطاعة لله ورسوله ، وأما الخشية فلله وحده .

قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) ونظيره قوله تعالى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) .

شرح :

ما شاء الله ! أرأيتم يا إخوان ، هذه حقيقة التوحيد ، هذا التوحيد الحق ، هذا التوحيد الذي يجعل القلب خالصا لله ، مفرغا عمن سواه ، التوحيد أيها الكرام ليس حفظ متن من المتون ، ولا منظومة من المنظومة ، التوحيد هو أن يعبد هذا القلب ربه وخالقه ، فيخليه من كل شيء إلا من الله عز وجل ، فلا يحب إلا الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يرجو إلا الله ، هذه المقامات العظيمة ، تفنى الأعمار في سبيل تحقيقها ، ويبلغ بها العبد أعظم مما يبلغ بكثير من العبادات العملية ، فإحياء القلب ، وإعادة تشكيله ، وتنظيفه من الشوائب والأعلاق والأخلاط الرديئة ، هي أشرف ما ينبغي أن يصرف الإنسان فيه عمره ، فلهذا كان التوحيد أعظمَ حسنة أطيع الله تعالى بها ، وكان الشرك أعظم ذنب عصي الله تعالى به ، ليس التوحيد هو فقط أن نقضي على الصور والأصنام والتماثيل ، لا شك أن هذا من صلب التوحيد ، ومن أسه وأصله ، لكن ما يقوم في القلب من التوجه الخالص لله رب العالمين ، {بلى من أسلم وجهه لله} ، انظر هذا التعبير البديع ، أسلم وجهه لله ، فوجهه لا يلتفت يمنة ويسرة ، ينظر إلى الآلهة المدعاة

، أو إلى جوانب الدنيا ، وتزويقها ، بل رُفع له علم فسار إليه ، نُصب له هدف فلا يرى سواه ، يسير إلى الله عز وجل ، هذا هو التوحيد الذي ينبغي أن نربي أنفسنا عليه ، وأن نجعل قلوبنا مستودعا له ، فالقلب هو بيت الرب في العبد ، كما أن الكعبة هي بيت الرب في الأرض ، وقد قال الله {وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود} ، أيضا وطهر قلبك ، فلا يبق في قلبك موضع لأحد غير الله عز وجل ، واجعل ما يطيف في قلبك ، هو المحبة والخوف والرجاء والتوكل ، وحسن الظن بالله ، وغير ذلك من المعاني الكريمة ، هذا هو التوحيد ، نسأل الله عز وجل أن يبلغنا وإياكم .

متن :

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحقق هذا التوحيد لأمته ويحسم عنهم مواد الشرك إذ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بكمال المحبة والتعظيم والإجلال والإكرام والرجاء والخوف حتى قال لهم : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد) .

(وقال له رجل ما شاء الله وشئت فقال أجعلتني لله نداً قل ما شاء الله وحده) .

وقال : (من حلف بغير الله فقد أشرك) .

وقال لابن عباس (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله جف القلم بما أنت لاق ، فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشئ كتبه الله لك ، ولو جهدت أن تضرك لم تضرك إلا بشئ كتبه الله عليك) .

وقال أيضاً (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله) .

وقال : (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد) .

وقال : (لا تتخذوا قبري عبداً ، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث ما كنتم) .

وقال في مرضه : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) . يُحذر ما صنعوا .

قالت عائشة رضي الله عنها : (ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يُتخذ مسجدا ، وهذا باب واسع .

شرح :

هذا الباب الذي أشار إليه الشيخ ، وذكر جملا من نصوصه ، هو باب حماية المصطفى جنابَ التوحيد ، وسده الذرائع الموصلة إلى الشرك ، جميع النصوص السابقة ، كلها تتعلق بحماية المصطفى صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد ، وسده الذرائع الموصلة إلى الشرك ، ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم ، منفذا يمكن أن ينفذ منه الشرك إلا سده ، ما ترك بابا من الأبواب يقيم التوحيد إلا فتحه ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يعلم بأن من أمته من قد يتسلل إليه الشرك ، ويغلو فيه صلى الله عليه وسلم ، نهاهم عن الغلو فيه ، وقال [لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله] فقد أقام الحجة ، وترك أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، وبلغ رسالات ربه ، لم يبق لأحد حجة ، لكن دعاة السوء ، لكن دعاة الشرك ، الذين يستزلهم الشيطان يسوقون هذه الشركيات بصور شتى ، ويزينون للناس الباطل ، ويغرونهم بالطواف بالأضرحة والقبور ، ويقولون : هؤلاء شفعاء عند الله ، لهم مقام ومترلة ورتبة ، ويصرفونهم عن أن يتوجهوا لله رب العالمين ، إلى أن يتوجهوا إلى هذه الوسائط الباطلة ،

ولو أنهم نصحوا لهم لعلموهم بأن الوساطة الصالحة ، والواسطة الصحيحة ، هي امتثال ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ، من الإيمان بالله ، ومحبته ، ورجائه وخوفه ، وطاعته ، والعمل بأمره ، واجتناب نهيه ، هذا الذي يوصل إلى الله عز وجل ، لا مثل هذه البدعيات ، من إقامة الموالد ، وتقديم النذور والقرابين والذبح لغير الله ، وغير ذلك ، فإن هذا مما جر الشيطان إليه فئاما من هذه الأمة إلى الشرك .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح ، بأن فئاما من أمته ستلحق بالمشركين ، فينبغي الحذر من هذا ، وأن يكون هم الداعية إلى الله عز وجل ، تحرير القلب ، والحذر من الشرك بالله تعالى .

متن :

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شئ ومليكه ، فإنه لا يُنكر ما خلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سبباً لإنبات النبات .

قال الله تعالى : (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) .

وكما جعل الشمس والقمر سبباً لما يخلقه بهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت ، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها ويثيب عليها المصلين عليه .

الأسباب المشروعة وغير المشروعة :

لكن ينبغي أن يُعرف في الأسباب ثلاثة أمور :-

أحدهما : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لا بد معه من أسباب أخـــر ، ومع هذا فلها موانع .

شرح :

قبل أن نمضي في هذه التنبيهات المتعلقة بالأسباب ، ينبغي أن نعلم يا رعاكم الله ، أن الناس انقسموا في باب الأسباب إلى طرفين ووسط :

- قوم تعلقوا بالأسباب .
- وقوم ألغوُا الأسباب .
- وقوم أثبتوا الأسباب لكنهم نظروا إلى مسبب الأسباب .

قوم تعلقوا بالأسباب :

بمعنى أنهم لم ينظروا إلى مسبب الأسباب سبحانه وبحمده ، وهؤلاء هم أهل الـــدنيا ، الماديون ، الذين لا يعرفون إلا الحسابات المادية ، وهو حال عامة البشر الآن ، لا ينظرون إلا إلى الأسباب ، ولا يلتفتون إلى التعلق بالله سبحانه وتعالى ، واعتقـــاد أنـــه لا يـــأتي بالحسنات إلا الله ، ولا يدفع السيئات إلا الله ، لا يؤمنون بمضمون قول الله تعـــالى {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فلا راد لفضله} وربما أصـــابت لوثة من هذا بعض المسلمين .

أضرب لكم مثلا : حينما يتعلق المريض بالطبيب ، تعلقا مبالغا فيه ، بـــأن يقـــول : أرجوك يا دكتور ، أرجوك إنك كذا وكذا ، أرجوك ، يظن أن شفاءه بيد هذا الطبيـــب المعين ، هذا نوع من الانحراف في باب الأسباب ؛ إذ إنه قد توجه قلبه إلى الـــسبب دون المسبب ، وكان ينبغي له أن يثبت السبب ، ويعلم أن هذا الطبيب الذي علمه الله مـــا لم

يعلمه هو (المريض) ، أن هذا الدواء الذي يصرفه الطبيب ، مؤثر ، قد جعل الله تعالى وخلق فيه التأثير ، والله تعالى هو مسبب الأسباب ، وقد يوجِد لها من الموانع ما لا يحصل معها الأثر .

وعلى النقيض منهم : قوم ألغوُا الأسباب بالكلية ، وهم المتواكلون ، وإن سموا أنفسهم المتوكلين ، هم في الواقع متواكلون ، تجدهم يسيرون في الصحاري والقفار ، لا يحملون زادا ولا ماء ، ويقولون : نحن المتوكلون ، ولما لقي بعضهم بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : لا أرى معكم زادا ولا طعاما ، قالوا : نحن المتوكلون ، قال : بل أنتم المتواكلون ، وهذا يكثر في الصوفية ، وهم في الحقيقة عند التأمل يجدهم الإنسان من العالة ، الذين يقتاتون على فتات موائد الناس ، ويستجدونهم ، أما أهل الحق فهم الذين أثبتوا الأسباب أسبابا ، وعلموا أن الله ركب هذا الكون على الحكمة والتعليل ، ولكنه سبحانه بيده مقاليد الأمور ، فقلوبهم معلقة بالله ، وأيديهم تأخذ بالأسباب التي شرعها الله ، فلذلك كانوا وسطا بين الطرفين ، فللنظر الآن إلى هذه التنبيهات المتعلقة بالأسباب :

متن :

أحدهما : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لا بد معه من أسباب أخر ، ومع هذا فلها موانع ، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود وهو سبحانه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس ، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

شرح :

هذا حق ، الله تعالى قد جعل أسبابا ، لكنه قد جعل مع الأسباب أحيانا موانع ، ربما يصف لك الطبيب علاجا معينا ، ويكون هذا العلاج مؤثرا نافعا من حيث الجملة ، لكن

هذا المريض المعين لم ينتفع به لسبب من الأسباب المتعلقة بوظائف الأعضاء ، ربما يتزوج الإنسان بغية الاستيلاد والذرية ، لكن يقوم عنده مانع من العقم ، يحول دون ذلك ، مع أنه فعل السبب ، إذن ليس اتخاذ الإنسان للسبب يعني ضرورة تحقق أو ترتب أثره عليه ، فإن هذا بيد الله عز وجل ، فقد يقيم مانعا يحول دون تمامه .

متن :

الثاني : أن لا يجوز أن يعتقد أن الشئ سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً بلا علم أو يخالف الشرع كان مبطلاً ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع الباء وحصول النعماء .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال : (إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به البخيل) .

شرح :

أيضا هذا تنبيه مهم ومفيد ، وهو : أنه لا يجوز أن يثبت الإنسان سببا لم ينصبه الله سببا ، لا حسا ولا شرعا ، من أثبت سببا غير متعقَّل بالحس والتجربة ، و لم يثبته الله سببا بالشرع ، فقد وقع في نوع من الشرك الأصغر ؛ ولهذا لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، في يد رجل حلقة أو خيطا ، فقال : [ما هذه ؟] قال : من الواهنة ، قال [انزِعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا ، فإنك لو مت على ذلك ما أفلحت أبدا] فتبين بذلك أن من وضع شيئا ، زاعما أنه سبب وهو غير سبب متعقل ، فاتخاذه لهذا السبب نوع من الشرك الأصغر .

مثال ذلك : وضع التمائم والقلائد على أعناق الصبيان أو البهائم لدفع العين ، هذا لا علاقة له ، أي علاقة بين وضع هذه القلائد والخرزات وهذه التمائم وبين جلب النفع

ودفع الضر ؟ اعتقاد ذلك نوع من الشرك الأصغر ، فلهذا نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم .

ومثله : هذا المثال الأخير ، وهو النذر ، فمن اعتقد أن النذر يحقق المقصود ، فقد أخطأ ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : [فإن النذر لا يأتي إلا بخير] كثير من الناس يظن أن النذر يجلب الخير أو يدفع السوء ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [إن النذر لا يأتي بخير ، إنما يستخرج به من البخيل] كأنما يظن الناذر أنه إذا نذر لله ، أن الله سبحانه وتعالى سيجيب دعاءه ، مع أنه لا علاقة بين هذين الأمرين ، فيجب أن يتنبه الإنسان لهذا المعنى .

وضابط الحس والتجربة : ما يدركه الناس من تجاربهم ، كأن يدرك الناس مثلا بالتجارب ، أن هذه العشبة تنفع من هذا المرض ، إدراكا حسيا متعقلا ، أو يدرك الأطباء بأن هذا العقار أجريت عليه تجارب ، فثبت أنه نافع من هذا الداء ، هذا أدرك بالحسن ، ومثلما ندرك بالحس أن الطعام سبب للشبع ، والماء سبب للري مثلا .

أما بالشرع فهو : أن يخبرنا صلى الله عليه وسلم بامر ، كأن نعلم بأن الفاتحة رقية ، قال : وما يدرك أ،ها رقية ؟ أو [الشفاء في ثلاثة ، شرطة محجم ، أو شربة من عسل ، أو كية من نار] أثبتها الشرع ، أو الحبة السوداء ، وما أشبه ، بهذا تعرف الأسباب الحسية والشرعية .

متن :

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شئ سبباً إلا أن تكون مشروعة ، فإن العبادات مبناها على التوقيف ، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره ،

وإن ظن أن ذلك سبب في حصوله بعض أغراضه ، وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة وإن ظن ذلك ، فإن الشياطين قد تُعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به ، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم بُعث بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فما أمر الله به فمصلحته راجحة ، وما نهى عنه فمفسدته راجحة ، وهذه الجمل لها بسط لا تحتمله هذه الوريقات .. والله أعلم .

شرح :

هذا التنبيه الثالث والأخير ، وهو أنه لا يجوز أن يتخذ الإنسان سببا من الأعمال الدينية الشرعية في غير ما جاءت به الشريعة ؛ لأن هذا يلحقه بالبدع .

واعلموا أن البدعة نوعان :

- بدعة أصلية .

- وبدعة إضافية .

فالبدعة الأصلية هي : أن ينشئ الإنسان عبادة أو عملا يسميه عبادة ، لا نظير له في الشرع ، فهذا يسمى بدعة أصلية .

مثالها : إقامة الموالد ، فإن هذا لا أصل له في الشرع أصلا .

النوع الثاني : البدعة الإضافية .

والبدعة الإضافية هي : أن يكون الشيء في أصله مشروعا ، ولكن تتطرق إليه البدعة ، لسبب من الأسباب التالية :

- إما لجنسها .

- أو لقدرها .

- أو لزمانها .

- أو لمكانها .

- أو لعددها .

- أو لهيئتها .

هذه ستة أسباب تجعل البدعة بدعة إضافية .

مثلا : قد يأتي إلى أمر مشروع ، وهو أن يصلي ركعتين ، فيقول : صلاة ركعتين مثلا بين الظهر والعصر ، فضلها كذا وكذا ، أصل العمل مشروع ، لكن أتى بتوقيت من تلقاء نفسه ، لا دليل له عليه .

كذلك لو قال : طواف سبعة عشر شوطا ، أو عشرين شوطا حول الكعبة ، له فضل كذا وكذا ، فهذا أيضا تعلق بالعدد ، وإن كان أصل الطواف مشروعا .

وكذلك أيضا قد يتعلق بالجنس ، فلو أن إنسانا ضحى بفرس ، ولم يضح من بهيمة الأنعام ، فقد أتى إلى عمل أصله مشروع ، لكن تطرقت إليه البدعة بجنسه .

كذلك أيضا في الهيئة : لو قال إنسان : إذا أردت أن تذكر أذكار أدبار الصلوات ، فاجلس جِلسة القرفصاء ، أو جلسة كذا وكذا ، فقد أضاف إليها شيئا يتعلق بهيئتها ، وقل مثل ذلك في بقية الأمور التي عددنا .

فينبغي أن يتنبه الإنسان إلى أنه لا يجوز أن يثبت شيئا سببا ، لم ينصبه الله سببا من الناحية الشرعية .

ومن ذلك : ما يفعله بعض المجتهدين ، حينما يقول : هذا دعاء لحصول الذريعة ، ويأتي بذكر مركب ، مخترع ، قد يكون في أصله صالحا ، ويجوز أن يدعو به الإنسان في وقت من الأوقات ، ولكن كونه ينص على أن هذا الدعاء لجلب الذريعة ، يحتاج إلى توقيف ، والعبادات في الأصل مبناها على التوقيف .

وأقرب منه مثالا : ما يفعله بعض الجاهلين ، حينما يصنعون ما يسمونه بـ "المنسَك" ، ويقولون : دعاء الشوط الاول ، دعاء الشوط الثاني ، دعاء الشوط الثالث ، من أين لهم ذلك ؟ هذا أيضا من البدع الإضافية ، وإن كان الدعاء في أصله مشروعا .

ومن ذلك ما قد نبهنا إليه في مناسبات مضت ، ما وجد في الآونة الأخيرة ، بين بعض الناس ، لا سيما بين بعض أخواتنا النساء الصالحات ، فيما يسمى بـ "قروبات التلاوة" أو "مجموعات التلاوة" حينما تتوافق مجموعة من الناس ، على أن يتزلوا في صفحة الوتش أب ، وجهين من المصحف ، ويتعاقد الجميع على قراءتها ، ومن قامت بقراءتها وقام بقراءتها ، أرسل إشارة بأنه تم ذلك ، هذا غير مشروع ، المشروع في التلاوة الاجتماع عليها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم [وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم] أما مجرد التعاقد والالتزام ، على أمر ليس فيه مصلحة واضحة ، من جهة تصحيح التلاوة ، أو غير ذلك مما يطلب ، فإن هذا يلحقه بالبدعة الإضافية .

ومثله : لو تعاقد قوم على صيام الاثنين والخميس ، أو أيام البيض ، قالوا : سنعقد بيننا اتفاقا على هذا الأمر ، ونتعاقد على هذا الأمر ، فهذا أيضا يلحقه بالبدعة الإضافية ، وكان شيخنا رحمه الله ، ينهى عن ذلك ، وينبه عليه ، ويرى أن هذه من العبادات الخاصة

، لا مانع أن يدعو أحد أحدا أن يفطر عنده ، لكن أن يجري نوع من التعاقد والاتفـــاق على هذا الأمر ، هذا يلحقه بالبدعة الإضافية .

وبالجملة : فإن الشيخ رحمه الله ، فيما تقدم من الصفحات ، قد بين لنا مـــا هـــي الواسطة الصحيحة ، بين الحق والخلق ، أي بين الله عز وجل وبين عباده ، وهم الرســـل ومن تبعهم من العلماء الربانيين ، وبين الواسطة الباطلة ، وهم من يُتخذون شفعاء عند الله عز وجل ، يسألون منهم الرزق والمدد ، والتوفيق والإعانة وغير ذلك ، فهذا هـــو عـــين الشرك ، الذي حذر الله منه ، وكفر به المشركين قديما وحديثا .

متن :

وسئل رحمه الله ، قال السائل : إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه الوسيلة والواسطة .

فأجاب : الحمد لله، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد وطاعته والـــصلاة والـــسلام عليه ، وسيلة للعبد في قبول دعائه وثواب دعائه ، فهو صـــادق ، وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى مخلوق ، أو يقسم عليه به ، أو أن نفس الأنبياء بـــدون الإيمان بهم وطاعتهم ، وبدون شفاعتهم ، وسيلة في إجابة الدعاء ، فهذا كذب في ذلك ، والله أعلم .

شرح :

الحمد لله ، سلك الشيخ نفس المسلك ، وهو التفصيل ، وهكذا ينبغي لطالب العلـــم والعالم الراسخ ، أن يسلك مسلك التفصيل ، بمعنى أن يقول : إن أراد كذا فهو حق ، يقر به ، وإن أراد كذا فهو باطل ينهى عنه ، فالتوسل بما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم

، من الأدعية وغير ذلك ، هذه مشروعة ، وأما الاعتقاد بأن الله تعالى لا يجيب دعـــاء إلا إذا أوصله إلى مخلوق ليبلغه إلى الله ، فهذا ممنوع .

متن :

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : هل يجوز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ فأجاب : الحمد لله ، أما التوسل بالإيمان به ، ومحبتـــه وطاعتـــه ، والـــصلاة والسلام عليه ، وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك ، مما هو من أفعاله وأفعال العباد المأمور بها في حقه ، فهو في مشروع باتفاق المسلمين ، وكان الصحابة رضي الله عنهم ، يتوسلون به في حياته ، وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه ، كما كانوا يتوسلون به .

شرح :

هذا القسم الأول محل اتفاق ، وهو : التوسل بالإيمان به ، واتباعه وطاعته ، لا يشك أحد بأن هذا من أعظم الوسائل الموصلة إلى الله ، وكذلك أيضا التوسل بدعائه صلى الله عليه وسلم ، بأن يدعو للمؤمنين ، كما توسلوا به في الاستسقاء ، وكما توسلوا بالعباس ، وبغيره من التابعين ، كما قدم معاوية بن أبي سفيان ، أحد فضلاء التابعين ، أن يستسقي بهم ، فهذا لم يزل عليه المسلمون ، وهو التوسل بدعاء بعضهم لبعض ، وإنما الاخـــتلاف فيما يأتي .

متن :

وأما قول القائل : اللهم إني أتوسل إليك به ، فللعلماء فيه قولان ، كما لهـــم في الحلف به قولان .

شرح :

أي التوسل بذاته ، التوسل بذاته غير التوسل بالإيمان به ، أو التوسل بدعائه الذي يدعو ربه ، هل يجوز التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم ، للعلماء في ذلك قولان ، كما لهم في الحلف به قولان :

متن :

وجمهور الأئمة ، كمالك والشافعي وأبي حنيفة ، على أنه لا يسوغ الحلف بغيره من الأنبياء والملائكة ، ولا تنعقد اليمين بذلك ، باتفاق العلماء ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، والرواية الأخرى : تنعقد اليمين به خاصة دون غيره ، ولذلك قال أحمد في منسكه الذي كتبه المروذي صاحبه .

تعليق : المرُّوذي نسبة إلى مرو الروض ، إذا نسبت إلى مرو قيل : المروزي ، وإلى مرو الروض قيل : المرُّوذي ، وإلى الرَّي قيل : الرازي .

ولكن غير أحمد قال : إن هذا إقسام على الله به ، ولا يقسم على الله بمخلوق ، وأحمد في إحدى الروايتين قد جوز القسم به ، فلذلك جوز التوسل به ، ولكن الرواية الأخرى عنه ، هي قول جمهور العلماء ، أنه لا يقسم به ، فلا يقسم على الله به كسائر الملائكة والأنبياء ، فإنا لا نعلم أحدا من السلف والأئمة ، قال : إنه يقسم به على الله ، كما لم يقولوا : إنه يقسم به مطلقا ، فلهذا أفتى أبو محمد بن عبد السلام ، أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم ، لكن ذكر له أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث في الإقسام به ، فقال : إن صح الحديث كان خاصا به ، والحديث المذكور لا يدل على الإقسام به ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [من كان حالفا فليحلف بالله وإلا فليصمت] وقال [من حلف بغير الله فقد أشرك] والدعاء

عبادة ، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع ، لا على الهوى والابتداع ، والله أعلم .

شرح :

هذه المسالة الأخيرة ، وهي : التوسل به صلى الله عليه وسلم ، أي بذاته ، جمهور العلماء ، مذهب مالك والشافعي وأبي حنيفة ، وإحدى الروايتين عن أحمد أنه لا يجوز ذلك ، والرواية الأخرى عن أحمد الجواز ، كما جواز الحلف به صلى الله عليه وسلم رواية عن أحمد ، ولكن الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية هو ما عليه جمهور العلماء ، من تحريم التوسل به ، صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ذلك نوع من الإقسام على الله بأحد من خلقه ، وقد ورد النهي عن ذلك ، وكذلك أيضا في مسألة الحلف ، فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته ، ألا يحلفوا بغير الله ، فقال [من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت]

ز

وبهذا تم الكلام عن هذه الرسالة وملحقاتها ، ونسال الله تعالى أن يرزقنا وإياكم علما نافعا ، وعملا صالحا ، وتجارة لن تبور ، وأن يحسن عاقبتنا في جميع الأمور .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.